الباب العاشر

الأوصاف والخصائص المحمدية

الفصل الأول

أوصافه صلى الله عليه وسلم

شرف الأمة المحمدية :

وصف الله تعالى حبيبه الأول صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم بأوصاف حميدة دلّت على عظيم فضله عليه وعلينا نحن المؤمنين ، لأن كل شرف له صلى الله عليه وسلم إنما يشرف به تابعوه . ولاعجب بعد ذلك أن يكون صلى الله عليه وسلم مِنّةً الله علينا كما جاء فى قوله تعالى فى سورة آل عمران :

(لَقَدْ منَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفسِهِمْ يَتْلو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ وإِنْ كَانوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ) . ولقد أيده سبحانه وتعالى بالقرآن الكريم وهو أبقى المعجزات وأخلدها فانتفع به الأولون والآخرون من أمته ، وآتاه العلم الذى لم يؤت مثله أحداً من العالمين ، ففصّل بعلمه ما أجمله القرآن الكريم فجاءت السنة النبوية نوراً على نور ، فاستضاءت الأمة المحمدية بالنورين ، نور الكتاب ونور السنة ، وترسمت خطاه صلى الله عليه وسلم فى تنفيذ الأحكام بالأقوال والأفعال والأحوال ، فاستنارت بهديه القلوب وتعلّقت بحبه الأرواح ، وكيف لا وقد اهتدى به المسلمون بعد الضلال ، وسعدوا بعد الشقاء ، والله يختص برحمته من يشاء . وصدق الله تعالى إذا يقول للأمة المحمدية : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ للنَّاسِ تَأْمُرون بالمعروفِ وتَنْهَوْنَ عنِ المنْكَرِ وتُؤْمِنُونَ بِاللهِ) فهل كانت تلك السعادة لأمة قبلنا ؟!

وإذا أردت أن ترى حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على هداية أمته

فتدبَّر قوله تعالى فى سورة التوبة : «(لَقَدْ جَاءَكمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفسِكمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) . وقد قال الحسين بن الفضل بحق : لم يجمع الله لنبى من أنبيائه اسمين من أسمائه إلا لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فسماه رءوفاً رحيماً ، وقال تعالى : (إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) .

رأفته ورحمته صلى الله عليه وسلم :

وإنى أوجه القارئ العزيز إلى الانتفاع بما يقوله بحق سيدى الشيخ يوسف النبهانى فى كتابه جواهر البحار ، فقد قال رضى الله عنه : إن اتصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأسماء والصفات الإلهية إنما هو على الوجه الذى يليق به صلى الله عليه وسلم ، لا على الوجه الذى يليق بالله تعالى من أوصاف الألوهية المختصة به عزّ وجلّ ، فإن هذا لا يجوز أن يتصف به النبى صلى الله عليه وسلم ولا أحد من الخلق ، ولكن الله تعالى قد خلع من فضله على سيد الخلق الأعظم وعبده الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كثيراً من أسمائه الحسنى وصفاته العليا تشريفاً له صلى الله عليه وسلم بما اختصه به بين الأنام .

ويقول فى هذا المقام القاضى عياض رضى الله عنه :

يجب أن يعتقد المؤمن أن الله جل اسمه فى عظمته وكبريائه وملكوته وحسن أسمائه ، وحلى صفاته ، لا يشْبه شيئًا من مخلوقاته ولا تتشبه به ، وما أطلقه الشرع على الخالق وعلى المخلوق لاتشابه بينهما فى المعنى الحقيقى ، إذ صفات القديم بخلاف صفات المخلوق ، فكما أن ذاته تعالى لاتشبه الذوات ، كذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقين إذ صفاتهم لا تنفك عن الأعراض وهو تعالى منزه عن ذلك ، بل لم يزل بصفاته وأسمائه . وكفى فى هذا قوله تعالى (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ) .

ولله در من قال من العلماء العارفين المحققين :

« التوحيد إثباتُ ذاتٍ غير مشبَّهة للذوات ولا معطلة من الصفات ، وقال الواسطى : ليس كذاته تعالى ذات ، ولا كاسمه اسم ، ولا كفعله فعل ، ولا كصفته صفة ، إلا من جهة موافقة اللفظ ، وجلَّت الذات القديمة أن تكون لها صفة

حديثة كما استحال أن تكون للذات المحدثة صفة قديمة ، وهذا كله مذهب أهل الحق والسنة والجماعة رضى الله عنهم .

أقول : وفى قوله تعالى : (بالمؤمنين رءوف رحيم) إشارة إلى أن رحمته صلى الله عليه وسلم دائمة لا تنقطع عن مؤمنى أمته . وكان صلى الله عليه وسلم أحرص ما يكون على هداية قومه واستنقاذهم من غواية الشيطان وتوجيههم إلى الإيمان حتى لقد قال له ربه فى سورة الكهف : (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنوا بِهَذَا الْحَدِيث أسفاً) ، أى كدت تقتل نفسك حسرة على فرارهم من الإيمان والانتفاع بالقرآن . كما يقول سبحانه فى سورة يوسف مواسياً له فى حرصه : (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ ولو حَرَصْتَ بمؤْمِنِينَ) ، وفى سورة النحل : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى الله وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) .

وقال تعالى فى سورة آل عمران : (وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِى الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى الآخِرَةِ ولَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) .

ومع هذا فقد رحمهم الله ولم يعذبهم بكفرهم كما فعل بكفَّار الأمم السابقة ، وهو ما يدل عليه قوله تعالى فى سورة الأنفال : (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) . فما أعظم فضل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم . وإذا كان صلى الله عليه وسلم قد حزن على أهل الكفر حين لم يؤمنوا فما كان أعظم

سروره بالمؤمنين حين آمنوا . ولا غرو فهو بالمؤمنين رءوف رحيم . وقد قالوا إن الرأفة أخص من الرحمة ، ولذا قيل رءوف بالمطيعين منهم ، رحيم بالمذنبين منهم ، صلى الله عليه وسلم .

ومن أمثلة رحمته صلى الله عليه وسلم أنه ترك الخروج لجماعة التراويح فى رمضان فى الليلة الثالثة بعد أن صلاها بهم ليلتين وقال : خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها ، كما ترك الأمر بالسواك عند كل وضوء ، وكان يتخول أصحابه بالموعظة ، فيعظهم حينًا بعد حين مخافة السآمة ، وكان يود راحتهم فى أحوالهم فقال: « اللهم مَنْ وَلِى من أمرِ أمتى شيئًا فشقّ عليهم فاشقُقْ عليه ، ومن ولى من أمر أمتى شيئًا فرفق بهم فارفق به » وقال : « إذا أمَّ أحدُكم الناس فليخفف فإن فيهم الصغيرَ والكبيرَ والضعيفَ والمريضَ وذا الحاجة ، وإذا صلى لنفسه فليطوّل ما شاء » ، وقال : « من آذى مُسْلِمًا فقد آذانى » .

وجاء فى كتاب «مواكب ربيع فى مولد الشفيع» لسيدى العالم العارف الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى (والد شيخى العارف بالله سيدى الشيخ عبد السلام الحلوانى رضى الله عنه وعن أبيه) أنه لما كان صلى الله عليه وسلم من ربه قاب قوسين أو أدنى (قرب مكانة لا مكان) قال صلى الله عليه وسلم : اللهم إنك عذّبت الأمم بعضهم بالحجارة ، وبعضهم بالخسف ، وبعضهم بالمسخ ، فما أنت فاعل بأمتى ؟ قال : أنزل عليهم الرحمةَ ، وأبدل سيئاتهم حسنات ، ومن دعانى منهم لبّيتُه ، ومن سألنى أعطيته ، ومن توكّل علىّ كفيته ، وفى الدنيا أستر على العصاة ، وفى الآخرة أشفّعك فيهم ، ولولا أنّ الحبيبَ يُحب معاتبةَ حبيبه لَما حاسبتُ أمتك ، فلما أراد الانصراف قال يارب إنّ لكل قادم من سفر تُحْفة[1] فما تُحْفة أمتى ؟ قال الله تعالى : أنا لهم ما عاشوا ، وأنا لهم إذا ماتوا ، وأنا لهم فى القبور ، وأنا لهم فى النشور .

وجاء كذلك فى الكتاب المذكور أنه صلى الله عليه وسلم سأل ربّه فى ذنوب أمته فقال : يارب اجعل حسابهم إلىّ لئلا يطلع على مساويهم غيرى ، فأوحى إليه:

---

(١) بفتح الحاء وسكونها .

هم أمتك وهم عبادى وأنا أرحم بهم منك، لا أجعل حسابهم إلى غيرى لئلا تنظر إلى مساويهم أنتَ ولا غيرك . وكذلك اختبأ لهم دعوته صلى الله عليه وسلم فقد روى مسلم « لكل نبي دعوةٌ مستجابة فتعجَّل كل نبي دعوته وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى فهى نائلة إن شاء الله تعالى مَنْ مات مِنْ أمتى لايشرك بالله شيئًا » .

أمير المؤمنين عمر والفضائل النبوية :

ولما كان صلى الله عليه وسلم آخر المرسلين الكرام وكان أكثرهم تبعاً ، فقد جمع الله له من المكارم والفضائل ما تفرّق فيهم ، وقدمه فى القرآن الكريم عليهم فى قوله تعالى : (وإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ومِنْكَ ومِنْ نُوحٍ وإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى بْنِ مَرِيم وأَخَذْنَا مِنْهُمْ ميثاقًا غَلِيظًا) . وقد جاء فى كتاب « جواهر البحار » لسيدى الشيخ يوسف النبهانى رضى الله عنه نقلا عن كتاب « المدخل » لسيدى الشيخ ابن الحاج رضى الله عنه .

« إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه سُمِعَ بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم يقول وهو يبكى :

بأبى[1] أنت وأمى يا رسول الله لقد كان لك جذع تخطب الناس عليه فلما كثروا واتخذت منبراً لتسمعهم فحنّ الجذع لفراقك حتى جعلت يدك عليه فسكَن ، فأمتك أولى بالحنين عليك حين فارقتهم ،

« بأبى أنت وأمى يا رسول ، الله لقد بلغ من فضيلتك عند ربك أن جعل طاعتك طاعته ، فقال تعالى : (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ) .

« بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك فى أولهم فقال تعالى : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم) .

« بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد بلغ من فضيلتك عند الله أنَّ أهلَ

---

(١) بأبى أنت وأمى أى أفديك بهما ، وذلك من سمو الأدب فى مخاطبته صلى الله عليه وسلم .

النار يودون أن يكونوا أطاعوك وهم بين أطباقها يُعذَّبون يقولون : (يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وأَطَعْنَا الرَّسُولَا) .

« بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجراً تتفجر منه الأنهار فما ذاك بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء ، صلى الله عليك .

« بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله ريحاً غُدُوُّها شهر ورَواحها شهر فما ذاك بأعجب من البُراق حين سَرَيْتَ عليه إلى السماء السابعة ثم صلّيت الصبح من ليلتك بالأبطح ، صلى الله عليك ،

« بأبي أنت وأمي يا رسول الله لئن كان عيسى بن مريم أعطاه الله إحياء الموتى فما ذاك بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك وهي مسمومة فقالت : لا تأكلني فإني مسمومة .

« بأبي أنت وأمي يا رسول الله ،لقد دعا نوح على قومه فقال:(رَبِّ لا تَذَرْ على الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا) ولو دعوت مِثلَها علينا لهلكنا عن آخرنا فقد وطِيءَ ظهرك وأُدمي وجهُك وكُسرت رباعِيَّتُكُ فأَبيْت أَن تقول إلا خيرًا ، فقلت : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون .

« بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد اتبعك في أحداث سنك وقصر عمرك ما لم يتبع نوحًا في كبر سنه وطول عمره فلقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا قليل .

« بأبي أنت وأمي يا رسول الله لو لم تجالس إلا كفئاً لك ما جالستنا ، ولو لم تنكح إلا كفئاً لك ما نكحت إلينا ولو لم تُؤاكل إلا كفئاً لك ما آكلتنا ، ولبست الصوف وركبت الحمار ووضعتَ طعامك بالأرض ولعقت أصابعك تواضعًا منك صلى الله عليك » .

وقد كان ابن عمر كثيراً ما ينشد قول زهير بن أبي سلمى في هرم بن سنان :

لو كنتَ من شيء سوى بشر كنت لمضيء بليْلة البدر

obeikandi.com

فيقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقد سمع ذلك : كان النبى صلى الله عليه وسلم كذلك ولم يكن كذلك غيره .

الخلق العظيم :

وكما تحلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرأفة والرحمة ، وعطف بهما على الطائعين والعاصين من المؤمنين ، فقد تحلى بسائر الكمالات الخلقية حتى تمت مكارمه واستغنى بقوله تعالى (وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) عن كل وصف من كلام البشر ، وإنْ تكلمنا عن خلقه العظيم فإننا لا نضيف جديداً لهذا الوصف الجامع وإنما نفصّل ما أجمله ، ونبين ما أوجزه ، ليتأسّى به من أراد أن يتخذ إلى ربه سبيلا ، فقد كمّله الله وجمله حتى صار فى كل شىء على غاية من علاه وجلاه ، ولقد خلقه سبحانه فى أحسن تقويم فكان معتدل البنية ، كامل الرشد ، حسن الصوت ، فصيح اللسان ، رقيق الوجدان ، واجتمعت له من فضل الله الأوصاف المحمودة عقلا وشرعًا كالعلم والحلم والصبر والصدق والأمانة والحياء والسخاء والتوكل والرضا والذكر والشكر والعفو والرأفة والسكينة والوقار والتواضع والانكسار والشجاعة والنجدة والهيبة والخشوع والخوف والرجاء والوفاء والدعاء والبكاء والعبادة والانتصار للحق والرفق وحسن العشرة وحب الخير وبغض الشر ، والبر بالضّعاف والأيتام والمساكين ، وبلغ فى كل ذلك النهاية التى لا مطمع بعدها لبشر ، فلا كعلمه علم ، ولا كحلمه حلم ، ولا كصبره صبر ، ولا كشجاعته شجاعة ، صلى الله عليه وعلى آله .

وقد سئلت سيدتنا أم المؤمنين عائشة عن خلقه صلى الله عليه وسلم فأجملته فى قولها البليغ « كان خُلُقُه القرآن » ومعنى ذلك أنه ائتمر بأوامر القرآن وأمر بها ، وانتهى بنواهيه ونهى عنها ، وأوامر القرآن الكريم ونواهيه إنما هى أوامر الله ونواهيه ، وليس بعد تأديب الله تأديب ، ومَنْ أحسن من الله قيلا ؟ وفى رواية قالت رضى الله عنها للسائل : ألستَ تقرأ القرآن (قَدْ أفْلَحَ المؤْمِنونَ) تعنى اقرأ الآيات العشر من سورة « المؤمنون » فذلك خلقه صلى الله عليه وسلم من الإيمان الذى هو أصل الأخلاق القلبية ، والصلاة التى هى عماد الأخلاق البدنية ، والزكاة التى هى رأس الأخلاق المالية ، إلى آخر ما فى الآيات .

وكان صلى الله عليه وسلم يحب الطيب ويكره الرائحة الكريهة ، وكان صلى الله

عليه وسلم يُعرف فى الليلة الظلماء بطيب ريحه ، وكان صلى الله عليه وسلم لاتفارقه قارورة الطيب فى سفره ولا المكحلة والمرآة والمشط والمقراض والسواك والخيط والإبرة ، فيخيط ثيابَه ، ويَخْصِفُ نعله ، وكان صلى الله عليه وسلم يَسْتاك بالأراك ، وكان صلى الله عليه وسلم يَشُوصُ[1] فاه بالسواك فى الليلة ثلاث مرات قبل النوم ، وبعده عند القيام لورده ، وعند الخروج لصلاة الصبح ، وكان صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا حقًّا ، وكان يُحسن عشرةَ أزواجه ويَقْسم بينهن بالعدل ، ويكون فى مهنة أهله فى البيت ، وكان صلى الله عليه وسلم يُكرم ضيفه ويَبْسُط رداءه له كرامة ، وكان صلى الله عليه وسلم أكثر الناس تَبَسُّمًا وأحسنهم بِشْراً ، وما خُيِّر بين شيئين إلا اختار أيسرهما .

وكان صلى الله عليه وسلم يركب الفرس والبغل والحمار ويُرْدِفُ خلفه عبده أو غيره ، وكان صلى الله عليه وسلم يمسح وجه فرسه بطرف كمه أو بطرف ردائه ، وكان صلى الله عليه وسلم يتوكأ على العصا ، ورعى صلى الله عليه وسلم الغنم وقال : ما مِنْ نبيّ إلاوقد رعاها ، وكان صلى الله عليه وسلم يعق[2] عن المولود من أهله ويأمر بحلق رأسه يوم السابع ويتصدق بزنة شعره فضة ، وعَقّ صلى الله عليه وسلم عن نفسه بعد ما جاءته النبوة ، وكان صلى الله عليه وسلم يحب الفأل ويكره الطيرة[3] ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا جاءه ما يحب قال : الحمد لله رب العالمين ، وإذا جاءه ما يكره قال : الحمد لله ربّى على كل حال ، وإذا رُفع الطعام من بين يديه قال : الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وآوانا وجعلنا مسلمين ، وفى رواية أخرى : الحد لله حمداً كثيراً طيّبا مباركًا فيه غير مودع ولا مستغنى عنه ربنا ، وإذا عطس خفض صوته واستتر بيده أو بثوبه وحمد الله .

وكان صلى الله عليه وسلم أكثرَ جلوسه مُستقبل القبلة ، وإذا جلس فى المجلس احتبى بيديه ، وكان صلى الله عليه وسلم يكثر الذكر ويطيل الصلاة ويقصر الخطبة ، ويستغفر فى المجلس الواحد مائة مرة ، وكان صلى الله عليه وسلم ينام أول الليل ثم يقوم من السَّحَر ثم يوتر ثم يأتى فراشه ، فإذا سمع الأذان وثَب قائمًا ،

---

(١) ينظف .

(٢) العقيقة : ذبيحة تذبح فى اليوم السابع ويطعم منها الفقراء شكراً لله على نعمته فى المولود أو المولودة .

(٣) أى أنه كان يتفاءل ولايتشاءم صلى الله عليه وسلم .

فإذا كان جُنُبًا أفاض عليه الماء، وإلا توضأ وخرج للصلاة، وكان صلى الله عليه وسلم يصلى فى سبحته قائمًا (النفل) وربما صلى قاعداً ، قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : لم يَمُت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان أكثر صلاته جالسًا ، وكان صلى الله عليه وسلم يُسْمع لجوفه أزيزٌ كأزيز المِرْجل من البكاء وهو فى الصلاة.

وكان صلى الله عليه وسلم يصوم الاثنين والخميس وثلاثة أيام من كل شهر وعاشوراء ، وقلّما يفطر يوم الجمعة ، وأكثر صيامه فى شعبان ، وكان صلى الله عليه وسلم تَنامُ عيناه ولا ينام قلبُه انتظاراً للوحى ، وإذا نام نفخ ولا يَغُطُّ غطيطًا ، وكان صلى الله عليه وسلم إذا رأى فى منامه ما يروعه قال : هو الله ربى لا شريك له ، وإذا أخذ مضجعه وضع كفه اليمنى تحت خده الأيمن وقال : رب قنى عذابك يوم تبعث عبادك ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم باسمك أموت وأحيا ، وإذا استيقظ قال : الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا تكلم يُبين كلامه حتى يحفظ من جلس إليه، ويعيد الكلمة ثلاثًا لتعقل عنه ، ويخزن لسانه ولا يتكلم فى غير حاجة ، ويتكلم بجوامع الكَلِم فصْلا ، لا فضولا ولا تقصيراً ، وكان صلى الله عليه وسلم يتمثل بشىء من الشّعر، وكان يتمثل بقول بعضهم : ويأتيك بالأخبار من لم تُزوّدِ ، وكان صلى الله عليه وسلم جُل ضحكه التبسم ، وربما ضحك من شىء مُعجب حتى تبدو نواجذه من غير قهقهة .

وما عاب صلى الله عليه وسلم طعامًا قط ، إن اشتهاه أكله وإن لم يشتهه تركه ، وكان صلى الله عليه وسلم لا يأكل مُتّكِئًا ولا على خوان .

وكان صلى الله عليه وسلم يأكل الهديّة ويكافئ عليها ، ولا يأكل الصدقة ، وكان يأكل ما وجد ، إن وجد تمراً أكله ، وإن وجد خبزاً أكله ، وإن وجد لبنًا اكتفى به، وكان يأتى على أهله الشهر والشهران ولا توقد فى بيته نار ، وكان قوتهم التمر والماء ، وكان صلى الله عليه وسلم يَعْصِب الحجر على بطنه من الجوع ، وقد آتاه الله مفاتيح خزائن الأرض فأبى أن يقبلها واختار الآخرة على الدنيا ، وأكل صلى الله عليه وسلم الخبز بالخل وقال : نِعْم الأُدْم الخل ، وأكل صلى الله عليه وسلم لحم الدجاج ، وكان صلى الله عليه وسلم

يحب الدُّبَّاء (القرع) ويأكله ويقول إنه شجرة أخي يونس ، ويعجبه الذراع من الشاة ، وقال صلى الله عليه وسلم إن أطيب اللحم لحم الظهر ، وقال صلى الله عليه وسلم : كُلُوا الزيت وادّهنوا به فإنه من شجرة مباركة ، وكان صلى الله عليه وسلم يعجبه الثُّفْل (ما بقي من الطعام) ، وكان صلى الله عليه وسلم يحب الحلواء والعسل .

وكان صلى الله عليه وسلم يشرب قاعداً . وربما شرب قائمًا ، ويتنفس ثلاثًا ، وإذا فضلت منه فضلة وأراد أن يسقيها بدأ بمن عن يمينه ، وأكل صلى الله عليه وسلم خبز الشعير بالتمر وقال هذا أدم هذا ، وأكل صلى الله عليه وسلم البطيخ بالرطب ، والقثاء بالرطب ، والتمر بالزبد ، وشرب صلى الله عليه وسلم لبنًا وقال : من أطعمه الله طعامًا فليقل : اللهم بارك لنا فيه وارزقنا خيراً منه ، ومن سقاه الله لبنًا فليقل : اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه ، وقال صلى الله عليه وسلم ليس شيء يجزى مكان الطعام والشراب غير اللبن .

وكان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس ، وأعدل الناس ، وأعف الناس ، لم تمس يده قط امرأة إلا امرأة يملك رقيقها ، أو عصمة نكاحها ، أو تكون ذات محرم منه ، وكان أسخى الناس ، ولا يلبث عنده دينار ولا درهم ، لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط ، من أيسر ما يجد من الشعير والتمر ، ويضع الباقي في سبيل الله تعالى ، لا يُسأل شيئًا إلا أعطاه ، ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه حتى يحتاج قبل انقضاء العام ، وكان أشد الناس حياء ، لا يثبت بصره في وجه أحد ، وكان يجيبُ دعوة العبد والحر ، ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن ، يتبع الأمَة والمسكين حيث دعواه ، لا يغضب لنفسه ويغضب لربه ، وكان يشهد الجنائز .

وكان أشد الناس تواضعًا وأسكتهم من غير كِبْرٍ وأبلغهم من غير عِيٍّ ، لا يهوله شيء من أمر الدنيا ، يجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ، ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم ، ويؤلف أهل الشرف بالبر ، يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أحوج منهم ، ويقبل معذرة المعتذر ولا يجفوه ، لا يحتقر فقيراً لفقره ، ولا يَهاب ملكًا لملكه ، يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء مستويًا ، ولا يقول إلا حقًا في الرضا والغضب ، فقد أخرج الحاكم وصححه من طريق عمر ابن شعيب عن أبيه عن جده قال : « قلت يا رسول الله أتأذن لي فأكتب ما أسمع منك ؟ قال نعم ، قلت في الرضا والغضب ؟ قال : نعم فإنه لا ينبغي أن

أقول عند الرضا والغضب إلا حقًّا ، وبذلك وغيره مما فاتنا جمع الله له محاسن الأخلاق فى أكمل صورها صلى الله عليه وسلم ورحم الله من قال :

فبَالِغْ وأَكْثِرْ لن تُحيطَ بوصفه وأين الثريا من يَدِ المتناول

شرف العبودية الكاملة :

ومع ما نال صلى الله عليه وسلم من محاسن الأخلاق وكريم السجايا والشمائل فإنه تحلى وتحقق بالعبودية لله كما تمنى وأحب،فقد خيَّره ربه بين أن يكون نبيًّا ملكا أو نبيًّا عبدًا ، فاختار أن يكون نبيًّا عبدًا . فشرف بوصف العبودية لربِّه فى آيات كثيرة من مثل قوله تعالى : (سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ). وقوله تعالى : (تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) .

ومن طرائف إشارات سيدى الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربى ما قاله بمذاقه السامى فى كتاب الرسائل :

« سبحان من أسرى إليه بعبـــده ليرى الذى أخفاه من آياتـــه
سبحانه من سيِّدٍ ومهيمـــــن فى ذاته وسماته وصفاتـــــه

قرن سبحانه التسبيح بهذا السفر الذى هو الإسراء ، ينفى بذلك عن قلب صاحب الوهم ومن تحكم عليه خياله من أهل الشبه والتجسيم ما يتخيله فى حق الحق من الجهة والحد والمكان ،فلهذا قال (لنريه من آياتنا) فجعله مسافراً به صلى الله عليه وسلم ، يعلم أن الأمر من عنده عز وجل هبة إلهية وعناية سبقت له مما لم يخطر بسره ولا اختلج فى ضميره .

« وجعله ليلا تمكينًا لاختصاصه بمقام المحبة لأنه اتخذه خليلا حبيبا ، وأكده بقوله ليلا ، مع أن الإسراء لا يكون فى اللسان إلا ليلا ، لا نهاراً ، لرفع الإشكال حتى لا يتخيل أنه أسرى بروحه ويزيل بذلك من خاطر من يعتقد من الناس أنّ الإسراء ربما يكون نهاراً ، فإن القرآن وإن كان نزل بلسان العرب فإنه خاطب به الناس أجمعين أصحاب اللسان وغيرهم .

« والليل أحب زمان للمحبين لجمعهما فيه، والخلوة بالحبيب متحققة بالليل، ولتكون رؤية الآيات بالأنوار الإلهية خارجة عن العادة عند العرب ، ولا فائدة عند السامع لو كان العروج به نهاراً فى رؤية الآيات .

« وأدخل الباء فى قوله بعبده من أجل المناسبة بين العبودية ، التى هى الذلة ، وبين حرف الخفض والكسر فإن كل ذليل منكسر ،

« وكذلك ذكر المسجدين الحرام والأقصى ، والمسجد مُفْعِل موضع سجود الرجل، والسجود عبودية ، والحرام يقتضى المنع والحجر ، فهو يطلب العبودية والأقصى يقتضى البُعْد ، والعبودية فى غاية البعد من صفات الربوبيّة ، فاختار سبحانه لنبيه الشرفَ الكامل بهذين الأمرين بأعلى ما يكون من صفات الخلق ، وليس إلا العبودية وما يشاكلها من حروف الخفض والمساجد والحرام والأقصى .

ويقول الإمام القشيرى رضى الله عنه فى لطائف الإشارات :

افتتح سبحانه سورة الإسراء بذكر الثناء على نفسه فقال (سبحان الذى...) الحق سبح نفسه بعزيز خطابه ، وأخبر عن استحقاقه لجلال قدره، وعن توحده بعلو نعوته .

ولما أراد أن يَعْرِفَ العبادُ ما خصّ به رسوله صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج من علو مارقّاه إليه ، وعظَم مالقّاه به، أزال الأعجوبة بقوله (أسرى) ونفى عن نبيّه خطر الإعجاب بقوله (بعبده) لأن من عرف ألوهيته واستحقاقه لكمال العز فلا يتعجَّب منه أن يفعل ما فعل . ومن عرف عبودية نفسه وأنه لايملك شيئاً من أمره فلا يعجب بحاله . فالآية أوضحت شيئين اثنين :

نفى التعجّب من إظهار فِعْل الله عز وجل ، ونفى الإعجاب فى وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، . . . ويقال لما كان تعبّده صلى الله عليه وسلم وتهجده بالليل جعل الحق سبحانه المعراج بالليل ، ويقال :

ليلــة الوصــل أصــفى من شهور ودهور سواهـــــا

ويقال أرسله الحق سبحانه ليتعلم أهل الأرض منه العبادة ، ثم رقاه إلى السماء ليتعلم منه الملائكة آداب العبادة ، قال تعالى فى وصفه صلى الله عليه وسلم : (ما زاغَ البَصَرُ ومَا طَغَى)[1] فما التفت يميناً ولا شمالا ، وما طمع فى مقام ولا فى إكرام ، تجرّد عن كلّ طلب وأرب . ،

(١) آية ١٧ من سورة النجم .

أحسن التأديب :

ويقول الإمام الزرقانى رضى الله عنه ، فى كتاب المواهب اللدنية شارحا قوله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل أدبنى فأحسن تأديبى » أى علّمنى رياضة النفس ومحاسن الأخلاق الظاهرة والباطنة بأفضاله علىّ بالعلوم الألوهية مما لم يقع نظيره لأحد من البرية ، وقال بعضهم أدب الله روح رسوله ورباها فى محل القرب قبل اتصالها ببدنه، باللطف والهيبة، فتكامل له الأنس باللطف ، والأدب بالهيبة، واتصلت بعد ذلك بالبدن، ليخرج من اتصالها كمالات أخرى من القوة إلى الفعل، وينال كلٌّ من الروح والبدن بواسطة الآخر من الكمال ما يليق بالحال ويصير قدوة لأهل الكمال .

ويقول أيضا رضى الله عنه : وقد استشكل وقوع الاستغفار من النبى صلى الله عليه وسلم وهو معصوم، والاستغفار يقتضى وقوع معصية، وأجيب بأجوبة منها : إن استغفاره تشريع لأمته ومن ذنوبهم فهو كالشفاعة لهم ، وقال الإمام الغزالى رضى الله عنه كان صلى الله عليه وسلم دائم الترقى ، فإذا ارتقى إلى حال رأى ما قبلها ذنبًا فاستغفر من الحال السابق ، وقال ابن بطال : الأنبياء أشد الناس اجتهاداً فى العبادة لما أعطاهم الله من المعرفة ، فهم دائبون فى شكره ومعترفون له بالتقصير .

وأقول ، تأييدًا لما ذهب إليه ابن بطال ، إنه جاء فى تفسيره قوله تعالى فى سورة سبأ : (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ) . أن سيدنا داود عليه السلام قال : يا رب كيف أشكرك والشكر نعمة منك تستوجبُ بدورها شكرًا آخر ، فقال الله تعالى : يا داود الآن عرفتنى وشكرتنى . كما أقول إن الاعتراف بالعجز عن شكره تعالى مَظهرٌ من مظاهر مَنْ تحقَّق بالعبودية ، ألستَ تراه تعالى يُثنى على سيدنا سليمان بن داود وقد أوتى مُلْكًا عريضاً فلم يُخرجه المُلك عن أدب العبودية ، فقال سبحانه واصفاً له (نِعْمَ العبْد إنَّه أوّاب) .

ويقول الإمام أبو على الدقاق رضى الله عنه ليس للمؤمن من صفة أتم ولا أشرف من العبودية ، ولهذا أطلقها الله على نبيّه صلى الله عليه وسلم فى أشرف المواطن بقوله تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده) وقوله تعالى : (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب) وقوله تعالى : (تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده) . وقوله تعالى: (فأوحي إلى عبده ما أوحى) .

ويقول أبو حفص النيْسابورى رضى الله عنه : العبد هو القائم بأوامر الله سيده على حد النشاط حيث جعله محل أمره . وقال الإمام ابن عطاء رضى الله عنه : العبد الذى لا ملك له . وقال الإمام رُويم رضى الله عنه : يتحقق العبد بالعبودية إذا سلّم القياد من نفسه إلى ربه وتبرأ من حوْله وقوته وعلم أنّ الكلّ له وبه .

معنى العبودية الكاملة :

ويقول سيدى الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى فى الباب ١٣٠ من الفتوحات المكية : العبودية نسبة إلى العبودة ، والعبودة مخلصة، فمقام العبودية مقام الذلّة والافتقار، فالعبد معناه الذليل ، يقال أرض معبّدة أى مذللة ، قال عز وجل : (وما خَلَقْتُ الْجِنَّ والإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون) . وما قال ذلك فى غير هذين الجنسين لأنه ما ادعى أحد الألوهية ولا اعتقدها فى غير الله، ولا تكبّر على خلق الله، إلا هذان الجنسان ، فلذلك خصّهما بالذكر دون سائر المخلوقات ، فقال ابن عباس فى معنى (إلا ليعبدون) معناها إلا ليعرفونى ، فلابد من المعرفة به أولا ، وأنه ذو العزة التى تذل الأعزاء لها ، فلذلك عدل ابن عباس فى تفسير العبادة إلى المعرفة، ولم يفسرها بحقيقة ما تعطيه دلالة اللفظ ، ولم يتحقق بهذا المقام على كماله مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان عبداً محضاً ، زاهداً فى جميع الأحوال التى تخرجه عن مرتبة العبودية ، وشهد الله أنه عبد مضاف إليه من حيث هُوِيَّته واسمه الجامع ، فقال فى حق اسمه (وأَنَّهُ لمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ . . .) وقال فى حق هويته (سبحان الذى أسرى بعبده) فأسرى به عبداً .

قول الإمام سهل التسترى :

ويقول الإمام سهل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه : « يا مسكين كان (أى الله) ولم تكن ، ويكون ولا تكون ، فلمّا كنتَ الآن صرت تقول : « أنا » كن الآن كما لم تكن ، فإنه الأول كما كان » . وما أبدع ذلك الكلام عند أهل الأفهام .

قول الإمام ابن القيم :

ويقول الإمام ابن القيم رضى الله عنه فى كتابه أعلام الموقعين ما يأتى :

« . . . . ولله سبحانه على كل أحد عبودية بحسب مرتبته ، سوى العبودية العامة التى سوَّى بين عباده فيها ، فعلى العالم من عبوديته نشر السنة والعلم الذى بعث به رسوله ما ليس على الجاهل ، وعليه من عبودية الصبر على ذلك ما ليس على غيره ، وعلى الحاكم من عبودية إقامة الحق وتنفيذه وإلزامه مَنْ هو عليه به والصبر على ذلك والجهاد عليه ما ليس على المفتى ، وعلى الغنى من عبودية أداء الحقوق التى فى ماله ما ليس على الفقير ، وعلى القادر على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بيده ولسانه ما ليس على العاجز عنهما ، وهو كلام نفيس فليحرص القارئ على الانتفاع به .

أقول : ومن تحقّق بالعبودية استبان مقام الربوبية ، ومن هنا جد صلى الله عليه وسلم فى عبادة ربه فسهر ليله وأطال قيامه حتى تورّمت قدماه فقالت له أمنا السيدة عائشة رضى الله عنها : لِمَ تفعل ذلك يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ وقد أشفق عليه ربه فخاطبه من عليائه :

(طَهَ ۝ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۝ إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى) مع أنه سبحانه هو القائل له : (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) . وقد قالوا إن الاصطبار هو نهاية الصبر

obeikandi.com

فانظر رعاك الله إلى همة الرسول صلى الله عليه وسلم فى عبادته وإلى شفقة الله به .

وصدق سيدنا حسان بن ثابت إذ يقول واصفاً همته صلى الله عليه وسلم :

له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر

وقال الكلبي — كما جاء فى تفسير الإمام القرطبي رضى الله عنه : لما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحى بمكة اجتهد فى العبادة ، واشتدت عبادته فجعل يصلى الليل كله زمانا حتى نزل قوله تعالى : (طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) فأمره الله أن يخفف عن نفسه فيصلى وينام ، فكان بعد هذه الآية يصلى وينام . وقال مجاهد : كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يربطون الحبال فى صدورهم فى الصلاة بالليل من طول القيام ثم نسخ ذلك بالفرض فنزلت الآية .

وجاء فى تفسير القرطبي لسورة المزمل من حديث مسلم أن السيدة عائشة رضى الله عنها سئلت عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لسائلها : ألستَ تقرأ (يا أيّها المزمل) قلت بلى ، قالت : فإن الله عز جل افترض قيام الليل فى أول هذه السورة فقام صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولا ، وأمسك الله عز وجل خاتمتها اثنى عشر شهراً فى السماء حتى أنزل الله عز وجل فى آخر هذه السورة التخفيف ، فصار قيام الليل تطوعًا بعد فريضة . ويقول الإمام القرطبي فى معنى قوله تعالى :

(يٰأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا) . أى قم ثُلثى الليل أو نصفه أو ثلثه ، وفريضة الصلاة وإن خوطب بها النبي صلى الله عليه وسلم كانت عامة له ولغيره صلى الله عليه وسلم . والمزمّل اسم مشتق من الحالة[1] التى كان عليها ، وهى من ملاطفة المخاطب ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للإمام على رضى الله عنه وكان نائمًا وقد لصق بجنبه التراب : قم أبا تراب ، وقال لحذيفة رضى الله عنه وكان نائمًا : قم يانومان . وقال الإمام القرطبى أيضًا : لما نزلت الآيات المذكورة شق ذلك على

---

(١) فقد جاء عليه الصلاة والسلام مرعوب الفؤاد من غار حراء بعد أن نزل عليه الوحى أول مرة ، فقال لسيدتنا خديجة رضى الله عنها : زملونى ، زملونى ، أى غطونى .

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الرجل لا يدرى متى نصف الليل من ثلثه فيقوم حتى يصبح مخافة أن يخطئ ، فانتفخت أقدامهم وانتقعت ألوانهم ، فرحمهم الله وخفف عنهم فقال تعالى :

(عَلِمَ أَن لَّنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ) . وبيّن سبحانه علة التخفيف بقوله تعالى : (عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى . . .) .

ويرحم الله الإمام البوصيرى إذ يقول منوّهًا بهمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قيام الليل تلذذاً بمناجاة ربه والوقوف بين يديه وقفة العبادة والعبودية :

ظلمتُ سنة من أحيا الظلامَ إلى أن اشكتت قدماه الضرّ من ورم

وأقول بعد ذلك إن العبودية كانت على لسانه فى دعواته صلى الله عليه وسلم مثل قوله فى الاستغفار (وهى الصيغة التى عرفت بسيد الاستغفار) :

« اللهم أنت ربى ، لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شرّ ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى فاغفر لى ، فإنه لايغفر الذنوب إلا أنت » .

فهو صلى الله عليه وسلم عبد ، ولكنه عبد الله ورسوله ، وقد تحقق بعبوديته لله تعالى فتحرر مما سواه فشرفه سبحانه بها حين نسبه إلى نفسه فى قوله تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده . .) وأبقى له وصفه الخالد (وإنّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) ، فاجتمع له خلة الخليل عليه السلام ، وشكر نوح عليه السلام ، وصبر أيوب ويعقوب عليهما السلام ، وإخلاص موسى عليه السلام ، وتواضع سليمان وعيسى عليهما السلام ، وصدق إسماعيل عليه السلام ، فقد كان كل منهم مختصًّا بخلق كريم غالب على سائر أخلاقه ، واجتمع لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما تفرق فيهم ، وصدق بعض العارفين فى قوله :

لكل نبىّ فى الأنام فضيلة وجُملتُها مجموعةٌ لمحمد

وقال بعضهم : من أراد أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فليعمل بسنته لا سيما فى مكان أميتت السنة فيه ، فإن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ماهى حياة سُنَّته ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا لأنه المجموع الأتم الأكمل ،

فَمَبْلَغُ العلم فيه أنــه بشر وأنهّ خيرَ خلــق الله كلّهم

وقال العارفون : أحسن أخلاق المرء فى معاملته للحق سبحانه: التسليم والرضا، وأحسن أخلاقه فى معاملة الخلق : العفو والسخاء ، كل ذلك مع الإيمان به تعالى، إذ قد توجد مكارم الأخلاق ولا إيمان ، كما أنه قد يوجد الإيمان ولا أخلاق ، إذ لو كان الإيمان يُعطِى بذاته الأخلاق لم يقل الله للمؤمن افعل كذا واترك كذا، ولذلك ائتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأوامر الله وانتهى بنواهيه فكان صاحب الخلق العظيم صلى الله عليه وسلم عدد ما فى علم الله صلاة دائمة بدوام ملك الله .

الإمام الرازى والأفضلية :

ومما جاء فى تفسير الإمام الفخر الرازى فى أفضليته صلى الله عليه وسلم :

إن أمة محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الأمم، فوجب أن يكون محمد صلى الله الله عليه وسلم أفضل الأنبياء ، وبيان الأول قوله تعالى : (كنتم خيرَ أمة أخرجت للناس) وبيان الثانى أن هذه الأمة إنما نالت هذه الفضيلة بمتابعة محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ).وفضيلة التابع توجب فضيلة المتبوع ،وأيضًا إن محمداً صلى الله عليه وسلم أكثر أتباعًا، لأنه مبعوث إلى الجن والإنس ، فوجب أن يكون ثوابُه أكثر لأن لكثره المستجيبين أثراً فى علو شأن المتبوع ، كما أنه عليه الصلاة والسلام خاتم الرسل فوجب أن يكون أفضل ، لأن نسخ الفاضل بالمفضول قبيح فى المعقول ، وقال عليه الصلاة والسلام : « لا يدخل الجنةَ أحدٌ من النبيين حتى أدخلَها أنا ،ولا يدخلها أحدٌ من الأمم حتى تدخلَها أمتى » وروى أنس رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا أول الناس خروجًا إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مُبشّرهم إذا أيسوا، لواء الحمد بيدى ، وأنا أكرمُ ولد آدم على ربّى ولا فخر » وروى الحكيم الترمذى رحمه الله فى كتاب « النوادر » عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال «إن الله تعالى اتخذ إبراهيم خليلا ،وموسى نجيًا، واتخذنى حبيبًا »ثم قال « وعزتى وجلالى لأوثرَنّ حبيبى على خليلى ونجيّى» .

الشيخ الأكبر وأحدية الشرائع :

ويقول سيدى الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربى فى الباب العاشر من الفتوحات : فإن قيل قد ورد قوله صلى الله عليه وسلم « لاتفضلونى »[1]، فالجواب : نحن ما فضّلناه ، بل الله فضّله فإن ذلك ليس لنا . وإن كان قد ورد : (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ) لمَّا ذَكَر الأَنبياء عليهم السلام فهو صحيح فإنه قال : (فبهداهم) وهداهم من الله وهو شرعه صلى الله عليه وسلم ، أى الزم شرعك الذى ظهر به نوابك من إقامة الدين وعدم التفرق فيه، ولم يقل « فبهم اقتده » ، وفى قوله تعالى : (ولا تتفرقوا فيه) دليل على أحدية الشرائع ، وقال (اتبع ملّة إبراهيم) وهو الدين ، فهو مأمور باتباع الدين ، فإن الدين إنما هو من الله لا من غيره ، وانظروا فى قوله عليه الصلاة والسلام : « لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا أن يتّبعنى » فأضاف الاتباع إليه، وأمره صلى الله عليه وسلم باتباع الدين والاقتداء بهدى الأنبياء ، لا بهم، فإن الإمام الأعظم إذا حضر لا يبقى لنائب من نوابه حكم ... وقال صلى الله عليه وسلم « كنتُ نبيًّا وآدم بين الماء والطين » وما قال كنتُ إنسانًا ، ولا كنت موجوداً ، وليست النبوة إلا بالشرع المقرر عليه من عند الله ، فأخبر أنه صاحب النبوة قبل جميع الأنبياء الذين هم نوابه فى هذه الدنيا . . فهذه منزلة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم مع الأنبياء والرسل ، وشريعته مع الشرائع كالشمس مع نور الكواكب التى اندرجت أنوارها فى نور الشمس إذ هى كلها حق من الله منزل كما قررنا .

---

(١) الحديث بتمامه « لاتفضلونى على يونس بن متى » وقال العلماء إن السر فى تخصيص سيدنا يونس بالذات خشية رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينتقص المؤمن قدره ويسيء فهم الآية الكريمة (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم) ولو تأمل المنصف لرأى أن قصته عليه السلام انتهت بقوله تعالى (فاجتباه ربه فجعله من الصالحين) وبهذا نستطيع أن نفهم من الحديث الشريف التزام الأدب مع جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

الفصل الثانى

خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم فى كتاب الله

بيّن الله تعالى فى كتابه الكريم خصائص الرسول صلى الله عليه وسلم فى آيات كثيرة ، كما بينت السنة النبوّية خصائص أخرى عديدة ، ومن ذلك فى كتاب الله تعالى :

١ ـ قوله تعالى فى سورة الأنبياء : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) .

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع الناس فمن آمن به وصدّق سَعِد ، ومن لم يؤمن به سلم مما لحق الأمم من الخَسْف والغرق. وكان تكذيب الرسل قبله صلى الله عليه وسلم مُوجباً لعذاب المكذبين كما يؤخذ من قوله تعالى : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) .

ولكن كانت رسالتُه صلى الله عليه وسلم بشير رحمة للعالمين بنص الآية السابقة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم بحق : « إنما أنا رحمةٌ مُهْداة » وقد عَمّت رسالته الإنسَ والجن ، ومن لم تنله رحمته صلى الله عليه وسلم فما ذلك من جهته وإنما ذلك من جهة القابل كمن استتر عن نور الشمس فى ركن أو ظلِّ جدار ، وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه : لم تُمْسِ بنا نعمة ظهرت أو بطنت نلنا بها حَظًّا فى دينٍ أو دنيا ، أو دفع بها عنا مكروه فيهما ، أو فى واحد فيهما ، إلاّ ورسول الله صلى الله عليه وسلم سببها .

٢ ـ وقوله تعالى فى سورة الأحزاب : (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا) . وقد روى البخارى عن عطاء بن يسار قال : « لقيت عمرو بن العاص فقلت أخبرنى عن صفة رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، قال : أجل والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يُقيم به الملّة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلاّ الله ، ويفتح به أعيناً عُمْياً، وآذاناً صُمّاً، وقلوباً غُلْفاً » . وذكر مثله عن عبد الله بن سلام وكعب الأحبار .

٣ – وقوله تعالى فى سورة الجمعة : (هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) .

وكفاهم معجزة أن يتلو عليهم صلى الله عليه وسلم كتاباً مُعجزاً لا عهد لهم به ولا قوة لهم على معارضته ، مع بيان معانيه بعلم غزير تميز به صلى الله عليه وسلم عن قومه ، كما أنه نقلهم بتأديبه من الرذائل إلى الفضائل . وكذلك انتفعت الأجيال اللاحقة بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك من فضل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقد ختم الله بشريعته جميع الشرائع السماوية ، وجعلها باقية يعمل بها العاملون إلى يوم القيامة ، فهو صلى الله عليه وسلم أكثر الرسل تبعاً ، ولم يقع لغيره من المرسلين أن يتزايد تابعوهم بعد انتقالهم إلى الدار الآخرة كما وقع فى الأمة المحمديّة ، حتى إن مسلمى زمانه صاروا فى عددهم قلة قليلة فى عدد أمته وإن امتازوا فى صفاتهم ، رضى الله عنهم ، وعلى جميع الأجيال التى تَلَتْهم .

٤ – وقوله تعالى فى سورة الأعراف : (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِى الْأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) . وهى آية تدل على عمومية الرسالة المحمدية للناس كافة ، وقد كانت رسالة مَنْ سبقوه خاصة فى أقوامهم وهو ما يستفاد من قوله تعالى

فى سورة إبراهيم : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «بُعثت إلى الأَحمر والأَسود » وهو ما يُؤيده قوله تعالى : (وما أَرسلْناك إِلَّا كافة للناس) ، وقوله تعالى : (تبارك الذِى نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا). وقد أَخرج الشيخان عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أُعطيت خَمْسًا لم يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنبياء قبلى ، نُصرت بالرُّعْبِ مَسِيرةَ شهر ، وجُعِلَتْ لِىَ الأَرضُ مسجدًا وطَهورًا فأَيّما رجل من أمتى أدركته الصلاة فَلْيصلِّ ، وأُحلَّت لى الغنائم ولم تحل لأَحد قبلى ، وأُعطيت الشفاعة ، وكان النبى يُبْعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامّة .

٥ ــ وقوله تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظونَ) . وقوله تعالى : (وأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيانًا لِكلِّ شَىْءٍ) . وكذلك كل الآيات التى بيّنت فضلَ القرآن الكريم إِنَّما هى منةٌ كبرى من الله تعالى على هذه الأُمة المحمديّة ، فقد أَكرمها الله تعالى فأَبقى لها القرآن تِبْياناً لكل شىء وهُدى ورحمة لقوم يؤمنون ، ويتحدث مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم شاكرًا ربَّه على تلك المنَّة فيقول فيما أَخرجه الإمام البخارى رضى الله عنه عن أَبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما من الأَنبياء نبىّ إِلَّا أُعطى ما مِثْله آمن عليه البشر وإِنَّما كان الذى أُوتِيتهُ وَحْيًا أَوحاه الله إِلىّ فأَرجو أَن أَكون أَكثرَهم تابعاً » .

٦ ــ قوله تعالى فى سورة الحجر : (لَعَمْرُكَ إِنَّهمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ) فقد أَقسم الله تعالى بعظيم قدر نبيّه صلى الله عليه وسلم ، والمعنى «وحياتك »فهو

قسمٌ إلهىّ دَلَّ على نهاية التكريم والتشريف . وقد قال ابن عباس رضى الله عنه : «ما خلق الله وما ذَرَأَ وما بَرَأَ نفساً أكرم على الله من محمد صلى الله عليه وسلم» . وقال أبو الجوزاء : ما أقسم الله تعالى بحياة أحدٍ غيره صلَّى الله عليه وسلَّم لأنه أكرم البريّة عند الله تعالى .

٧ـ قوله تعالى فى سورة النجم : (فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحى) وقوله تعالى : (مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) ، وقوله تعالى : (مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى) وقوله تعالى : (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) . فقد كشفت تلك الآيات البيّنات عن تزكية جمَّلته صلى الله عليه وسلم وعصمته عن الآفات فى هذا المسرى والمعراج. فما كذب فؤاده ما رأى مما تضمحل العقول فى أقل القليل من وصفه ، وما نطق لسانه عَن هوى النفس ، بل نطق عن وحى ربه ، وكمل أدبه فى بصره فما زاغ البصر وما طغى ، والشاهد بذلك رب العالمين سبحانه وتعالى وكفى بالله شهيدًا .

٨ـ قوله تعالى فى سورة القلم : (وإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غيرَ مَمْنونٍ) . فما أعجب أجرًا يجرى عليه بلا انقطاع ولا نفاد . وكذلك قوله تعالى فى السورة ذاتها : (وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) ، وفى صيغة الآية من التأكيد ما فيها . وقد سُئلت السيدة عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت كما مر عليك : كان خلقه القرآن ، ألست تقرأ القرآن : (قد أفلح المومنون . . .) فدلَّتنا بجوابها رضى الله عنها على أنه كان يستمسك بالأخلاق المحمودة فى القرآن الكريم ويتحلى بها . فكان على الصراط المستقيم وهو صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض .

وقد قال تعالى ناصحًا لنا : (وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاط

مُسْتَقِيمٍ) . وعلَّمنا أن نسأله تعالى الصراط المستقيم فى صلواتنا حين نقرأ الفاتحة قائلين : (إياك نعبد * وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم) . وقد قالوا للإمام سهل التسترى رضى الله عنه : أليس قد هدانا الله فلماذا نقول : اهدنا ؟فأجابهم : نسأله أن يثبتنا على الهدى ويزيدنا منه لأنه تعالى يقول : (ولدينا مزيد) . وأقول بعد قول الإمام سهل : إن الله تعالى مع ما آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم من العلم قال له : (وقلْ ربِّ زِدنِى عِلْمًا) .

٩ – قوله تعالى فى سورة آل عمران : (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّه قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وأَنا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ) قال المفسرون أخذ الله الميثاق بالوحى ، فلم يبعث الله نبيًّا إلَّا ذكر له محمدًا عليه الصلاة والسلام ، وأخذ عليه ميثاقه إن أدركه ليؤمنن به ، وقيل أن يبيّنه لقومه ويأخذ ميثاقهم أن يبيّنوه لمن بعدهم . وقال الإمام علىّ كرم الله وجهه : لم يبعث الله نبيًّا من آدم فَمَنْ بعده إلَّا أخذ عليه العهد فى محمد لئن بُعث وهو حىّ ليؤمنن به ولينصرنَّه ويأخذ العهد بذلك على قومه .

١٠ – قوله تعالى فى سورة الأحزاب : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقًا غليظًا) . فانظر كيف قدم الله تعالى رسولنا محمداً صلى الله عليه وسلم على الذين سبقوه فى زمانهم من سادتنا المرسلين أولى العزم تعظيماً لقدره وتشريفًا لمكانته بينهم ، ولذلك رتبهم الشاعر فى قوله :

محمد إبراهيم موسى كليمه فعيسى فنوح هم أولو العزم فاعلم

واقد خاطب سيدنا عمر مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام[1] بكى به صلى الله عليه وسلم وكان فى ذلك الكلام : بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك فى أولهم وقرأ الآية المذكورة .

١١ ــ وكل نداء نودى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القرآن الكريم جاء بلغة تدل على التكريم الخاص (يا أيها النبي . . .) (يا أيها الرسول . . .) (ياأيها المزّمل . . .) (ياأ يها المدّثر . . .)

بينما نودى إخوانه النبيون بأسمائهم (يا آدَمُ اسْكنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ) ، (يا إبْراهيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤيَا) ، (يا دَاوُدُ إنَّا جَعَلنَاكَ خَلِيفةً فى الْأَرْضِ) ، (يَا مُوسَى أَقْبِلْ ولا تَخَفْ إنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) ، (يا عيسَى ابنَ مَرْيَمَ اذكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ).

١٢ ــ وكذلك يستفاد من كتاب الله تعالى أن أمم الرسل السابقين عليه صلوات الله وسلامه كانوا يُخاطِبون الرسلَ بأسمائهم : (قَالُوا يَا نُوحُ قدْ جَادَلْتَنَا فَأَكثَرْتَ جِدَالَنَا) . (يا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا) . (يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ) . وهكذا ، فى حين أن الله تعالى نهانا أن ندعو رسول الله صلى عليه وسلم باسمه فقال تعالى فى سورة النور : (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا) .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : كانوا يقولون يا محمد ، يا أبا القاسم ، فنهاهم الله عن ذلك إعظامًا لنبيه صلى الله عليه وسلم ،قال فقالوا: يانبى الله، يارسول الله ، فوجب علينا أن نوقره كما علمنا الله ، ولهذا كان كبارُ سادتنا الصحابة يقولون له : بأبى أنت وأمى يا رسول الله . . . أى أفديك بأبى وأمى . ولا يخفى على القارئ الكريم أن حرمته صلى الله عليه وسلم باقية بعد انتقاله كما

---

(١) وفى الفصل الأول من هذا الباب ترى كلاما أوسع لأمير المؤمنين عمر رضى الله عنه فى هذا المجال ، قاله بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم .

كانت فى حياته ، ألست تلحظ أننا نخاطبه فى التشهد قائلين « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » ويقول الإمام النووى رضى الله عنه فى كتابه « تهذيب الأسماء واللغات » ولو خاطب المصلى آدميًّا غيره ، صلى الله عليه وسلم بطلت صلاته .

ونحن إذا قارنا بين نبينا صلى الله عليه وسلم وإخوانه النبيين الكرام فإننا لا نقصد بالمقارنة حطًّا من أقدارهم التى شرّفها الله فى القدم حين اختصهم جميعًا بفضل النبوّة والرسالة ، وإنما نقصد أن نبين أنهم مع علو أقدارهم فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتقدّمهم فى قدْره باعتباره كبيرهم ، وكيف لا وقد أمّهم حين قدمه جبريل عليه السلام فصلى بهم فى المسجد الأقصى ليلة الإسراء كما مر عليك فى الباب الرابع .

١٣ ـ ويقول تعالى فى سورة آل عمران : (ما كانَ إبْراهِيمُ يَهُودِيًّا ولا نَصْرَانِيًّا وَلٰكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوه وهذا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا واللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ) . وقد جمع الله فى الآية الأخيرة بين خليله عليه الصلاة والسلام وحبيبه صلى الله عليه وسلم . ومع رفعة مقام الخلّة (واتَّخذَ اللهُ إبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) فقد ذكره الله فى الآية باسمه على حين ذكر الله تعالى حبيبه محمدًا صلى الله عليه وسلم بالنبوة بقوله : (وهذا النبىّ) .

١٤ ـ ولعلنا نلحظ أنه حيث ذكر الله حبيبه فى القرآن الكريم باسمه إنما ذكره فى غير مقام النداء ، ومع ذلك أتبع اسم الحبيب بوصف الرسالة ، فمثلا يقول تعالى فى سورة الفتح : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والذين مَعَهُ . . .) ويقول فى سورة آل عمران : (وما محمدٌ إلَّا رَسولٌ قد خَلَتْ من قبلِه الرُّسُلُ . . .) ويقول فى سورة الأحزاب : (ما كَانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ من رجالِكُمْ ولَكِنْ رَسُولَ اللهِ وخاتَم النَّبِيِّين . . .) ، أما وقد عظَّم الله قَدْرَ نبيّه

صلى الله عليه وسلم فواجب علينا نحن المؤمنين أن نحفظ عليه قَدْرَه الذى حفظه الله ، فلا يقول خطيبٌ يتكلم عنه صلى الله عليه وسلم : كان محمد بن عبد الله . . . كما يفعل بعض الجهّال الذين يتزيّون بزى العلماء وليس لهم من العلم إلَّا شَقْشَقَةُ اللسان وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعاً ، وليتق الله أيضاً أولئك الذين يجترئون على رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجة أنه بشر مثلنا ، فيتخرصون بما لا يتفق مع قدره كصاحب وحى ، وما يتنافى مع عصمته التى شهد بها قوله تعالى (وإنك لعلى خلق عظيم) . وإذا كان الله قد ارتضى خلقه ووصفه بالعظمة ، فكيف ينتقصه البشر ويخالفون وصف الله العليم الحكيم .

١٥ ـ وقد أخبرنا القرآن الكريم بما كان من دفاع سادتنا ، المرسلين عن أنفسهم ، وبيّن لنا أن الله تعالى تولَّى الدفاع عن رسولنا صلى الله عليه وسلم ، فمثلا حين قال قوم نوح عليه السلام : (إنَّا لَنَراكَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ) . دافع عليه السلام عن نفسه فقال فيما حكى الله عنه : (يا قَوْمِ لَيْسَ بى ضَلَالَةٌ . . .) ، وقال قوم هود عليه السلام : (إنَّا لَنراكَ فى سَفَاهَةٍ . . .) فقال نافيًا عن نفسه السفاهة (ياقوم ليس بى سَفاهةٌ . . .) ، وقال فرعون لموسى عليه السلام (إنِّى لأَظنّكَ يا موسَى مَسْحورًا) . فقال موسى عليه السلام (وإنى لأَظنُّكَ يَا فِرْعونُ مَثْبُورًا) . ولكن حين قال كفار مكة إن محمدًا ساحر أو كاهن أو مجنون ، وحين قالوا إنه شاعر نتربّص به رَيْبَ المنون ، رَد الله بكلامه عليهم مدافعاً عن رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقال تعالى : (ما أَنت بِنِعمَةِ رَبِّكَ بمجنونٍ) . وبقوله : (إنه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وما هو بِقَوْلِ شاعرٍ قَليلاً ما تُؤْمِنُونَ * ولا بِقَولِ كَاهِنٍ قَليلًا ما تَذَكَّرُونَ) ، وبقوله تعالى : (وما عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وقُرآنٌ مُبِينٌ) .

١٦ ـ ويقول الحافظ أبو نعيم الأصبهانى فى كتابه دلائل النبوة :

إن الله تعالى قَرن اسمَ نبيّنا عليه الصلاة والسلام باسمه تعالى فى كتابه

عند ذكر طاعته ومعصيته وفرائضه وأحكامه ووعده ووعيده فقال تعالى : (وأَطِيعُوا الله وأَطِيعُوا الرَّسُولَ) . وقال تعالى : (وأَطيعُوا الله ورسولَه إِنْ كُنتمْ مُؤمنينَ) . وقال تعالى : (ويُطِيعُونَ الله ورَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ الله) . وقال تعالى : (إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمنوا بِاللهِ ورَسُوله . . .) وقال تعالى : (اسْتَجِيبُوا لِلهِ وللرَّسُولِ . . .) . وقال تعالى : (ومَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ . . .) وقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ ورسولَهُ . . .) . وقال تعالى : (بَراءَةٌ من اللهِ ورسولِهِ) . . . وقال تعالى : (وأَذانٌ من اللهِ وَرَسُولِهِ . . .) وقال تعالى : (ولَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ ولا رَسُولِهِ . . .) .

وقال تعالى :

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ من يُحادِدِ اللهَ ورسُولَهُ . . .) . وقال تعالى : (إِنَّمَا جَزَاءُ الذينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَه . . .) وقال تعالى : (ولا يُحَرِّمونَ ما حرَّم اللهُ ورَسُولُه . . .) . وقال تعالى : (ومن يُشاقِقِ اللهَ ورسُولَه . . .) وقال تعالى : (قُلِ الأَنفالُ لله والرَّسُولِ . . .) وقال تعالى : (فَردُّوه إلى الله والرسول . . .) وقال تعالى : (ولَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُم اللهُ ورسُولُه . . .) وقال تعالى : (وقَالُوا حسْبُنَا الله سَيُؤْتِينَا الله مِنْ فَضْلِهِ ورسُولُه . . .) وقال تعالى : (فَأَنَّ لله خُمُسَهُ ولِلرَّسُولِ . . .) وقال تعالى : (وما نَقَمُوا إِلَّا أَن أَغْنَاهُمُ الله ورسولُه . . .) . وقال تعالى : (وقَعدَ الَّذين كَذَبُوا الله ورسُوله) وقال تعالى : (وإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عليه وأَنْعَمْتَ عليه . . .) يقول الإمام أبو نعيم : قرن سبحانه اسمه باسمه فى ذلك تعظيماً له وتشريفاً صلى الله عليه وسلم .

١٧ ـ قوله تعالى : (النَّبِىُّ أَوْلَى بِالمُؤمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وأَزْواجُه أُمَّهاتُهُمْ) ويقول الإمام ابن الحاج رضى الله عنه فى كتابه المدخل فى تعقيبه على هذه الآية : فحقه عليه الصلاة والسلام أعظم من حقوق الوالدين ، قال عليه الصلاة والسلام : ابدأ بنفسك ، ثم بمن تعول ، فقدّم نفسه على غيره ،

والله عز وجل قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفس كل مؤمن ، ومعنى ذلك إذا تعارض له حقان ، حقٌّ لنفسه وحقٌّ للنبي صلى الله عليه وسلم ، فآكدهما عليه وأوجبهما حق النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم يجعل حق نفسه تبعاً للحق الأول.

١٨ ـ قوله تعالى فى سورة الأحزاب : (وما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ ولا أَن تَنْكِحُوا أَزواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذلِكُمْ كَانَ عِندَ اللهِ عَظيماً). قال الإمام القرطبى رضى الله عنه فى تفسيره : حرَّم الله نكاح أزواجه من بعده صلى الله عليه وسلم ، وجعل لهن حكم الأمهات ، وهذا من خصائصه تمييزًا لشرفه وتنبيهًا على مرتبته صلى الله عليه وسلم . قال الإمام الشافعى رضى الله عنه : وأزواجه صلى الله عليه وسلم اللاتى مات عنهن لا يحل لأحد نكاحهنّ ومن استحلّ ذلك كان كافرًا لقوله تعالى : (وما كان لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسولَ اللهِ . . .) . وقد قال صلى الله عليه وسلم : «زوجاتى فى الدنيا هن زوجاتى فى الآخرة» . وقال : «كُلُّ سَبَبٍ ونَسَبٍ يَنْقطِعُ إِلَّا سَبَبى ونَسَبِى فإِنَّهُ باقٍ إلى يوم القيامة» .

١٩ ـ قوله تعالى : (وما آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) . قال الإمام أبو نعيم إن الله فرض طاعتَه على العالم فرضًا مُطلقاً لا شرط فيه ولا استثناء .

٢٠ ـ قوله تعالى فى سورة البقرة : (قد نَرَى تَقَلُّب وَجْهِكَ فِى السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبلةً تَرْضَاهَا) . وتدل هذه الآية الكريمة على أن الله يسارع فى هواه صلى الله عليه وسلم كما قالت سيدتنا عائشة رضى الله عنها .

٢١ ـ وقال ابن سبع من خصائصه صلى الله عليه وسلم أن الله سبحانه وتعالى وصفه فى كتابه عضوًا عضوًا ، فقال فى وجهه : (قد نرى تقلب وجهك فى السماء . . .) ، وقال فى عينيه : (ولا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما متَّعْنَا به أَزواجاً مِنْهُمْ . . .) . وقال فى لسانه : (فإنما يَسَّرناهُ بلِسَانِكَ . . .) وفى

يده وعنقه (ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مغلولةً إلى عُنُقِكَ . . .) . وفى صدره وظهره (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ) . وفى قلبه (نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ) . وفى خُلُقِهِ : (وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) . أقول وفى نفسه قال تعالى : (مَا كَانَ لِأَهْلِ المَدِينة وَمَنْ حَوْلَهُم مِنَ الأَعرَابِ أن يتخَلَّفُوا عَنْ رسُولِ الله ولا يرغبوا بأَنْفُسِهِمْ عن نَفْسِهِ) .

٢٢ ـ قوله تعالى : (ورفعنا لك ذكرك) . قيل إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ معى وهو قول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وقيل فى الأَذان . وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه يعنى ذكره صلى الله عليه وسلم عند الإيمان بالله تعالى والأَذان ، ويحتمل ذكره عند تلاوة القرآن وعند العمل بالطاعة والوقوف عن المعصية .

٢٣ ـ وقال الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه : من تمام نعمته عليه أَن جعله حبيبه ، وأَقسم بحياته ، ونسخ به شرائع غيره ، وأَحلّ له ولأمته الغنائم ، وجعله شفيعاً مُشفَّعاً ، وسيد ولد آدم ، وقرن ذكره بذكره ، ورضاه برضاه ، وجعله أَحد ركنى التوحيد ثم قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إنما يُبَايِعُونَ اللهَ) ببيعتهم إياك (يَدُ اللهِ فَوقَ أَيْدِيهِمْ) . يريد عند البيعة ، قيل فى معنى يد الله : قوة الله ، وقيل ثوابه ، وقيل سنته ، وقيل عقده ، وهذه استعارة وتجنيس فى الكلام وتأْكيد لعقد بيعتهم إياه وعظيم شأْن المبايع صلى الله عليه وسلم .

٢٤ ـ قوله تعالى فى سورة الشورى : (قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا المَوَدَّةَ فى القُرْبَى) . ويقول سيدى الشيخ الأَكبر محيى الدين بن العربى فى الباب ٣٤٢ تعقيباً على هذه الآية :

« قالت الرسل لأممهم عن أمر الله تعالى تعريفاً للأمم بما هو الأمر عليه : (قُلْ مَا سألتُكُمْ من أجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إن أجرىَ إلاّ علىَ الله) . فذكروا استحقاق الأجر على من استعملهم ، ولم يقولوا ذلك إلاّ عن أمره ، فإنه قال لكل رسول : (قل ما أسألكم عليه من أجر) . واختص محمداً صلى الله عليه وسلم بفضيلة لم ينلها غيره ، عاد فَضْلُها على أمته ، ورجع حكمه صلى الله عليه وسلم إلى

حكم الرسل قبله فى إبقاء أجره على الله، فأمره الحقُّ أن يأخذ أجره الذى له على رسالته من أمته ، وهو أن يـُوادُّوا قرابته فقال له : (قل لا أسألكم عليه أجراً) أى على تبليغ ماجئت به إليكم (إلا المودةَ فى القربى) فتعين على أمته أداء ما أوجبه الله عليهم من أجر التبليغ ، فوجب عليهم حبُّ قرابته صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ، وجعله باسم المودّة وهو الثبوت على المحبة .

« فلما جعل له ذلك ولم يقل إنه ليس له أجر على الله، ولا إنه بقى له أجر على الله، وذلك ليجدّد له النعم بتعريفه ما يُسر به ،فقيل له بعد هذا: قل لأمتك أمراً ما قاله رسول لأمته (قل ما سألتكم[1] من أجر فهو لكم إن أجرى إلاّ على الله) ، فما أسقط الأجر عن أمته فى مودتهم للقربى ، وإنما ردّ ذلك الأجر بعد تعينه عليهم، فعاد ذلك الأجر عليهم الذى كان يستحقه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيعود فضل المودة على أهل المودة ، فما يدرى أحد ما لأهل المودة فى قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأجر إلاّ الله تعالى » .

وكلام سيدى الشيخ الأكبر كما ترى كلام نفيس ينكشف به الأمر ، وينشرح له الصدر ، وعلينا جميعاً أن نحفظ مودَّة سادتنا آل البيت بالثبات على محبتهم ، ويرحم الله المحب دِعْبل الخُزاعى إذ يقول فى قصيدته المشهورة :

أحبُّ قَصِيَّ الرَّحْمِ من أجل حُبِّكُمْ وأهجر فيكم أُسرتى وبناتى
فيا ربِّ زدنى مِنْ يقينى بصيرةً وزد حبَّهم يا ربِّ فى حسناتى

٢٥ ـ قوله تعالى فى سورة الأحزاب : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ ويُطَهِّرَكم تَطْهِيرًا) . ويقول فى تعقيبه على هذه الآية سيدى الشيخ الأكبر محيى الدين بن العربى فى الباب ٢٩ من الفتوحات :

« لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عبداً محضاً قد طهره الله وأهل بيته تطهيراً وأذهب عنهم الرجس (وهو كل ما يشينهم) ، فلا يضاف إليهم إلاّ مطهر ولا بد، فإن المضاف إليهم هو الذى يُشْبههم، فما يضيفون لأنفسهم إلا مَنْ له حكم الطهارة والتقديس، فهذه شهادة من النبى صلى الله عليه وسلم لسلمان

---

(١) آية ٤٧ من سورة سبأ .

الفارسىّ بالطهارة والحفظ الإلهى والعصمة حيث قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « سَلْمان منا أهل البيت » وشهد الله لهم بالتطهير وذهاب الرجس عنهم ، وإذا كان لا يضاف إليهم إلا مطهر مقدس وحصلت له العناية الربانية الإلهية بمجرد الإضافة ، فما ظنك بأهل البيت فى نفوسهم فهم المطهَّرون ، بل عين الطهارة . . .

« فدخل الشرفاء أولاد فاطمة كلهم رضى الله عنهم، ومن هو من أهل البيت مثل سلمان الفارسى رضى الله عنه ، إلى يوم القيامة فى حكم هذه الآية من الغفران ؛ فهم المطهرون اختصاصًا من الله وعنايةً بهم لشرف محمد صلى الله عليه وسلم وعناية الله به ، ولا يظهر حكم هذا الشرف لأهل البيت إلا فى الدار الآخرة فإنهم يُحْشرون مغفوراً لهم ، وأما فى الدنيا فمن أتى منهم حدًّا أقيم عليه . . . وقال صلى الله عليه وسلم : « لو أن فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم سَرَقَتْ لقطعت يدها » وقد أعاذها الله من ذلك رضى الله عنها ، فوضع الأحكام لله يضعها كيف يشاء وعلى أى حال يشاء ، فهذه حقوق الله تعالى . . .

«أما عن حقوقنا فنحن مخيَّرون إن شئنا أخذنا وإن شئنا تركنا، والترك أفضل عمومًا ، وليس لنا ذمّ أحد ، فكيف بأهل البيت ، فإنا إذا نَزَلْنا عن طلب حقوقنا وعفونا عنهم فى ذلك أى فيما أصابوه منا ، كانت لنا بذلك عند الله اليد العظمى والمكانة الزلفى، فإن النبى صلى الله عليه وسلم ما طلب منّا عن أمر الله إلا المودة فى القربى ، وفيه سر صلة الأرحام ، ومن لم يقبل سؤال نبيه فيما سأله فيه مما هو قادر عليه ، فبأى وجه يلقاه غداً أو يرجو شفاعته ؟ وهو ما أسعف نبيه صلى الله عليه وسلم فيما طلب منه من المودة فى قرابته، فكيف بأهل بيته وهم أخص القرابة . ثم إنه جاء بلفظ « المودة » وهى الثبوت على المحبة ، فإنه من ثبت ودّه فى أمر استصحبه فى كل حال ، وإذا استصحب المودّة فى كل حال لم يؤاخذ أهل البيت بما يطرأ منهم فى حقه فما له أن يطالبهم به ، فيتركه ترك محبة وإيثار على نفسه لا لها . . . فلو كشف لك يا ولىّ عن منازلهم عند الله فى الدار الآخرة لودَدْتَ أن تكون مولى من مواليهم ، والله يلهمنا رشد أنفسنا . أقول وقد أفردنا بابًا خاصًّا بآل البيت استيفاء للبحث وهو الباب الخامس عشر

فليرجع إليه القارئ الكريم .

٢٦ ـ قوله تعالى فى سورة البقرة : (وكَذَلكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ويَكُونَ الرَّسُولُ عليكم شهيدًا) ، قال سيدى الشيخ عز الدين بن عبد السلام رضى الله عنه : ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم أن الله أنزل أمته منزلةَ العُدول من الحكَّام ، فيشهدون على الناس بأن رُسُلَهم بلغتهم ، وهذه الخِصِّيصَة لم تَثْبُتْ لأحد غيره من الأنبياء . وأخرج البخارى والترمذى والنسائى عن أبى سعيد الخدرى قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يُدْعى نوح يوم القيامة فيقال له : هل بَلَّغتَ فيقول : نعم ، فتُدعَى أمتهُ فيقال لهم : هل بلَّغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير وما أتانا أحدٌ ، فيقال : من يَشهدُ لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فذلك قول الله تعالى : (وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) الوسط العدول ،فتُدْعَون فتشهدون له بالبلاغ ، وأشهدُ عليكم . وأخرج أحمد والنسائى والبيهقى عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يجىء النبى يوم القيامة ومعه الرجل ، والنبى ومعه الرجلان فأكثر من ذلك ، فيقال لهم : هل بلَّغتُم ؟ فيقولون نعم ، فيدعى قومهم ، فيقال لهم : هل بلَّغوكم ، فيقولون : لا ، فيُقال للنبيين : مَنْ يشهد لكم أنكم بلَّغتم ؟ فيقولون أمة محمد ، فتُدعى أمة محمد فيشهدون أنهم قد بلَّغوا ، فيقال لهم : وما علمكم أنهم قد بلَّغوا ؟ فيقولون : جاءنا نبينا بكتاب أخبرنا أنهم قد بلَّغوا وصدقناه ، فيُقال : صدقتم ، فذلك قوله تعالى : (وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً) قال عدولا ، (لتكونوا شهداءَ على الناس ويكون الرسولُ عليكم شهيداً) .

٢٧ ـ قوله تعالى فى سورة آل عمران (وشاوِرْهمْ فى الأمرِ) وقد أخرج ابن عدىّ والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال لما نزلت (وشاورْهم فى الأمر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما إنّ الله ورسوله لغنيَّان عنها ولكن جعلها الله رحمةً لأمتى » ومن ذلك يدرك القارئ الكريم أن الله تعالى شرع الشورى لرسوله صلى الله عليه وسلم لتتأسَّى به أمتُه فيها فتأمن الوقوع فى الضلالة أو الخطأ الفردى .

٢٨ ــ قوله تعالى فى سورة المائدة : (والله يَعْصِمُكَ منَ الناسِ) فكان صلى الله عليه وسلم فى وقاية ربه فلا يستطيع أعداؤه أن يصلوا إليه بسوء قلّوا أو كثروا ، ولما نزلت هذه الآية سَرَّحَ رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه الذين كانوا فى حراسته اكتفاءً بحراسة الله تعالى وحفظه .

٢٩ ــ قوله تعالى فى سورة الحشر : (ما أَفاءَ اللهُ على رسُولِهِ من أَهْلِ القرى فَللَّهِ وللرَّسُولِ ولِذِى الْقُرْبَى واليَتَامَى والمَسَاكِينِ وابنِ السَّبِيلِ كَىْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فخُذُوه وما نَهاكُمْ عنه فانْتَهوا واتّقوا الله إنَّ الله شَديدُ العِقابِ) .

يقول الإمام القرطبى فى تفسيره :

الأموال التى للأمة والولاة فيها مدخل ثلاثة أضرب :

الأول : ما أخذ من المسلمين على طريق التطهير لهم كالصدقات والزكوات .

الثانى : الغنائم ، وهو ما يحصل فى أيدى المسلمين من أموال الكافرين بالحرب والقَهْر والغَلَبة .

الثالث : الفَىْء ، وهو ما رجع للمسلمين من أموال الكفار عفواً صفواً من غير قتال ولا إيجاف[1] ، كالصلح والجزية والخراج والعُشور المأخوذة من تجار الكفار . ومِثْله أن يهربَ المشركون ويتركوا أموالهم ، أو يموت أحدٌ منهم فى دار الإسلام لا وارث له .

فأَما الصدقة فمصرفها الفقراء والمساكين والعاملون عليها حسب ما بيّنه الله تعالى ، وأما الغنائم فكانت فى صدر الإسلام للنبى صلى الله عليه وسلم يصنع فيها ما شاء كما قال فى سورة الأنفال : (قُلِ الأَنفالُ للهِ والرَّسُولِ . . .) ثم نسخ بقوله تعالى (واعلموا أَنما غَنِمْتُمْ من شىء فَأَن لله خُمُسَهُ ، ولِلرَّسول ولِذِى القُرْبَى واليَتَامَى والمَسَاكينِ وابنِ السَّبيلِ) . وأما الفىءُ فَقسمته وقسمة الخمس سواء .

---

(١) من غير إيجاف أى من غير إعمال الخيل والركاب .

(٢) سكتت الآية عن أربعة الأخماس الباقية لتدل على أنها حق للغانمين .

والأمر عند مالك فيهما إلى الإمام، فإن رأى حبسهما لنوازل تنزل بالمسلمين فعل، وإن رأى قسمتهما أو قسمة أحدهما قسَّمه كله بين الناس، وسوَّى فيه عربيهم ومولاهم ، ويبدأ بالفقراء من رجال ونساء حتى يغنوا ، وذوو القربى من رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطَوْن من الفيء سهمهم على ما يراه الإمام ، وليس له حد معلوم ، واختلف فى إعطاء الغنى منهم، فأكثر الناس على إعطائه لأنه حق لهم . وقال مالك : لا يُعطى منه غير فقرائهم لأنه جُعل عوضًا من الصدقة .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق على أهله من مال الفيء نفقةَ سنَتِهم ثم يأخذ ما بقى فيجعله مَجْعل مال الله ، ولما توفى صلى الله عليه وسلم قال أبو بكر رضى الله عنه : أنا ولىُّ رسول الله ، فعمل فيه بما عمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويقول الإمام القرطبى فى تفسيره :

واختلف العلماء فى ذوى القربى على ثلاثة أقوال :

(ا) قريش كلها ، قاله بعض السلف ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم لما صعد الصَّفا جعل يهتف: « يابنى فلان، يابنى عبد مناف، يابنى عبد المطلب يابنى مُرَّة ، يابنى عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار » الحديث .

(ب) وقال الشافعى وأحمد وأبو ثور ومجاهد وقتادة وابن جريج ومسلم بن خالد : بنو هاشم وبنو المطلب لأن النبى صلى الله عليه وسلم لما قسم سهم ذوى القربى بين بنى هاشم وبنى المطلب قال : « إنهم لم يفارقونى فى جاهلية ولا إسلام ، إنما بنو هاشم وبنو المطلب شىء واحد » وشبَّك بين أصابعه ، أخرجه النسائى والبخارى . قال النسائى وأسهم النبى صلى الله عليه وسلم لذوى القربى وهم بنو هاشم وبنو المطلب، بينهم الغنى والفقير، وقد قيل إنه للفقير منهم دون الغنى كاليتامى وابن السبيل . . وهو أشبه القولين بالصواب عندى والله أعلم . والصغير والكبير والذكر والأنثى سواء ، لأن الله تعالى جعل ذلك لهم ، وقسَّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم ، وليس فى الحديث أنه فضّل بعضهم على بعض .

(ج) بنو هاشم خاصة ، قاله مجاهد وعلى بن الحسين ، وهو قول مالك والثورى والأوزاعى وغيرهم .

٣٠ـ قوله تعالى : (وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا) . قال الإمام الفخر الرازى : أجمع المفسرون على أن المحمود هو مقام الشفاعة ، وقال العلماء إن كلمة « عسى » من الله واجب ، وفى البخارى من حديث ابن عمر قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المقام المحمود فقال : « هو الشفاعة » .

٣١ـ قوله تعالى (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) . وفى البخارى عن أنس رضى الله عنه قال لما عرج النبى صلى الله عليه وسلم إلى السماء قال : «أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف فقلت : ما هذا يا جبريل ، قال : هذا الكوثر » .

٣٢ـ قوله تعالى : (لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ) . قيل« لا »زائدة أى نحلف لك بهذا البلد الذى شرّفته بمكانك فيه . والبلد هى مكة حرسها الله تعالى ، وبحلوله صلى الله عليه وسلم فيها صارت حرماً ، ومهبطاً للوحى ، ومنبعاً للدين ، وقد قالوا إن هذا القسم أدخل فى تعظيمه صلى الله عليه وسلم من القسم بذاته وبحياته كما أشار إليه عمر رضى الله عنه بقوله : بأبى أنت وأمى يارسول الله قد بلغت من الفضيلة عنده أن أقسم بتراب قدميك فقال (لا أقسم بهذا البلد) .

٣٣ـ قوله تعالى فى سورة الأحزاب : (إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً) . والصلاة من الله زيادة فضل وتكريم وتشريف ، وصلاة الملائكة دعاء بالزيادة ، وصلاة المؤمنين دعاء يقابلون به معروف رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى لا يستطيعون مكافأته عليه ، فيرجعون إلى الله ضارعين أن يكافئه عنهم بمارسم الله لهم من أمره تعالى بالصلاة والتسليم عليه صلى الله عليه وسلم .

ويقول الإمام الفخر الرازى رضى الله عنه فى تفسيره : إنّ صلاة الملائكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من السجود لآدم ، لأن الله تعالى أمرهم بالسجود لآدم تأديبا ، وأمرهم بالصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم تقريباً[1] ، كما أن الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم دائمة إلى يوم القيامة ، وأما سجود الملائكة

---

(١) أى يتقرب المؤمن إلى ربه بالصلاة عليه صلى الله عليه وسلم .

لآدم عليه السلام فما كان إلاّ مرة واحدة، وكذلك السجود لآدم إنما تولاه الملائكة، وأما الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم فإنما تولاها ربّ العالمين . ثم أمر بها الملائكة والمؤمنين .

وأخيراً لا يفوت القارئ الكريم أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم هى طريق الفتح ، وأنها من ذكر الله تعالى الآمر بها ، ويقول صلى الله عليه وسلم :

« أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم علىّ صلاة » وقد أفردنا لها بابًا خاصًّا وهو الباب الرابع عشر فليرجع إليه القارئ الكريم .

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدِنا محمد وعلى آله عددَ ما فى علمِ الله صلاةً دائمةً بدوام مُلْكِ الله .

obeikandl.com